سلطان ناجي
مُؤرخ ومُفكّر يمني
www.sultannagi.com

الإكليل

مجلة دورية تعنى بتاريخ اليمن الفكري والحضاري - تصدرها وزارة الإعلام والثقافة - صنعاء

العدد الخامس (سبتمبر ١٩٨١م - ذوالقعدة ١٤٠١هـ)

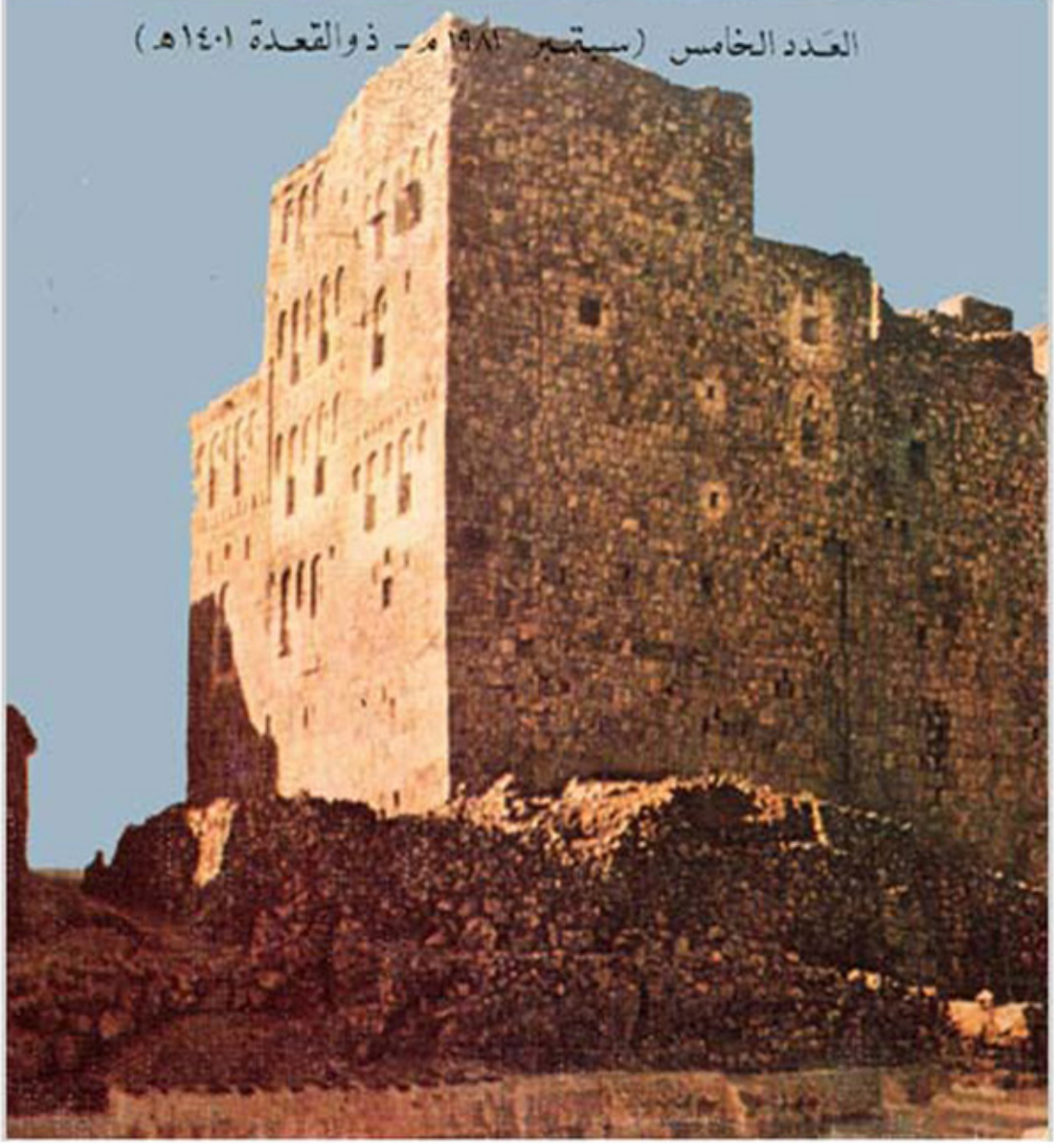

سلطان ناجي
مُؤرخ ومُفكّر يمني
www.sultannagi.com

التنظيم الإجتماعي في اليمن

سلطان ناجي. صنعاء، مجلة الإكليل، العدد الخامس، ١٩٨١ م.
(ترجمة من الإنجليزية لدراسة الدكتور يوسف شلحود بعنوان: "Social Organization In Yemen" المنشورة في صنعاء، مجلة دراسات يمنية، العدد الثالث، أكتوبر ١٩٧٩ م).

سلطان ناجي
مؤرخ ومفكر يمني
www.sultannagi.com

التنظيم الاجتماعي في اليمن

بقلم : البروفيسور يوسف شلحود
تعريب : سلطان ناجي

البرفيسور يوسف شلحود عالم انثولوجي سوري من حلب الشهباء مقيم في باريس حيث يعمل هناك استاذ ابحاث في المركز الوطني الفرنسي للابحاث العلمية . وخلال فترة العشر سنوات الاخيرة تردد على اليمن مرات بغرض دراستها ميدانيا في هذا المجال وقد نشر عددا من الابحاث الاجتماعية عن اليمن منها ما يلي :

١ ـ التنظيم الاجتماعي في اليمن .
٢ ـ المجتمع اليمني والقانون .
٣ ـ احتفالات الزواج في اليمن .
٤ ـ المجتمع اليمني والقات .

وقد نشر دراسته الاولى بالفرنسية في بداية السبعينات ثم قام بترجمتها الى الانكليزية بول درويش ونشرت الترجمة المختصرة في مجلة دراسات يمنية . وكما سنرى فان هذه الدراسة الميدانية اجريت في المرتفعات العليا شمال صنعاء في منطقة حاشد بالذات مدينة (خمر) منها . ان دراسة الاستاذ شلحود هذه قد اجريت مباشرة بعد انتهاء الحرب الجمهورية ـ الملكية . ولربما ان صورة التنظيم الاجتماعي قد تختلف الان بعض الشيء هناك بسبب الانشطة الاقتصادية وبالذات تدفق الاموال من الهجرة والسلع المهربة وغيرها . فمثل هذه الانشطة لابد ان تحدث نوعا من الحراك الاجتماعي بين الفئات الاجتماعية التي درسها . وهذه هي الترجمة المختصرة لصلب دراسة البرفيسور شلحود .

يقول احد الاخصائيين في الشؤون اليمنية ان معرفتنا لليمن امر لايستغني عنه من اجل دراسة بدايات الاسلام وتطور المجتمع الاسلامي . وهذه الدراسة تحصر نفسها بالمرتفعات العليا شمال صنعاء (حاشد وبكيل) وبالذات مدينة (خمر) كعينة منها . وتظهر الدراسة ان النظام الاجتماعي هناك يحمل الطابع العميق للبداوة . فهم اثناء فض منازعاتهم يحتكمون الى القانون العرفي الذي في مظهره الكثير يشبه العرف السائد عند عرب الصحراء

من البديهي ان الحياة الريفية لاتستطيع ان تقوم دون ان تطور نظاما اجتماعيا مناسبا لها . ومثل

سلطان ناجي
مؤرخ ومفكر يمني
www.sultannagi.com

هذا النظام موجود في المرتفعات العليا هذه الا انه تنظيم اجتماعي نصفه قروى ونصفه الاخر قبلي . ويبدو ان العنصر البدوى يخدم كقاعدة ثقافية ان لم تكن تاريخية .

وقبل الدخول في التفاصيل لهذا التنظيم يجد الواحد انه يستطيع ان يميز ست فئات اجتماعية مرتبة من اعلى الى اسفل على النحو التالي :

(١) ممثلو العلوم الدينية .
(٢) الفلاحون .
(٣) التجار .
(٤) الحرفيون .
(٥) العنادل .
(٦) الاخدام .

وانه من حيث المبدأ فالتبادل الزوجي لايمكن ان يحدث سوى بين افراد المهنة الواحدة ، الا ان تسامحا يمكن ان يحدث بين الشاغلين لنفس المركز الاجتماعي اى مثلا القضاة والفلاحين والتجار والحرفيين .

اذا فحصنا قوائم علماء الانساب الخاصة بمختلف اجزاء البناء الاجتماعي سنجد الفاظا تنطبق على جماعات أكبر من القبيلة مثل (جذم) ، و(شعب) ، و(جمهور) . فالجذم يشير على وجه الحصر الى اصل الجماعة ان كانت من شمال الجزيرة ام جنوبها . اما الشعب والجمهور فيشيران الى حجم الجماعة دون اعتبار الوحدة السياسية التي هي مفقودة على أية حال في كل المستويات الثلاثة . واللفظة العربية المناسبة الدالة على الكونفدش هي (حلف) . ولكن ككل فانها تدل على الحلف القضائي ولا تدخل في الحسبان القرابة العصبية حقيقة تلك كانت ام خيالا. ان الحلف بالبداهة ينطوى على معاهدة دائمة بين كيانات دائمة . وهذا ليس موجودا في الحالة اليمنية . وينشأ الحلف من فكرة التضامن مع جماعات معينة ضد جماعات اخرى وليس من اجل الرغبة في عمل جماعي متفق عليه . ان الحلف هو تجمع سياسي غير مستقر ، يشعر به الواحد اكثر مما يعيشه ولا يؤكد نفسه الا في وجه الخطر . واذا وجدت سلطة فهي على مستوى القبيلة فقط . وفي الحقيقة فان القبلية فقط تعي وحدتها العصبية ـ السياسية عندما تكون معارضة لاخرى . ان النزعة الى الثنائية واضحة على مستوى القبيلة والعشيرة : عصيمات العليا مقابل عصيمات السفلى ، حجور اليمن مقابل حجور الشام .

ان المصطلحات التي تستخدم في تحديد الاجزاء المختلفة للبناء الاجتماعي لتدل ايضا على تاثير الصحراء . وهذه القائمة التي حصلنا عليها في اليمن تسير تماما على نفس المنوال المحبب الى قلوب علماء الانساب . فالقبيلة تحتوى على الاقسام التالية : (البطن) ،و(الفخذ) ،و(اللحمة) ، و(الحبل) ، و(البدنة) ،او(العصبة) ،و(الاسرة) . وفي اليمن فان (اللحمة) تقوم مقام (العشيرة) في شمال الجزيرة .وهي مكونة من مجموعة(بدنه) او (عصبة) امّا الاسرة في اليمن فهي من نوع العائلة (البطريكية) .

وكما نعلم فان الزواج عند العربي هو زواج لحمي يتم بين افراد القبيلة الواحدة . والبنوة تعتبر النسيب من ناحية الاب فقط جزءا من العائلة . فالاقرباء من ناحية الام ، مهما كانت درجة الحب التي يتمتعون بها ، يعتبرون غرباءً ، بحيث انه يستطاع الثار من نسيب من ناحية الام لجريمة ارتكبها بحق نسيب من ناحية الاب .

وكما قلنا فان العائلة في المرتفعات الشمالية العليا

سلطان ناجي
مؤرخ ومُفكّر يمني
www.sultannagi.com

■ البروفيسور يوسف شلحود

هي بطريكية في نوعها . فليس ان الوحدة العائلية المكونة من رجل وزوجته او زوجاته واطفاله غير موجود فحسب ، ولكنها تشكل جزءا من جماعة ارثية اكبر تسمى (الاسرة) . وهي تجمع من عدد من العائلات المستمدة نسبها من جد واحد والتي لا يسمح بأخذ الثأر بين أفرادها .وعندما يتقدم السن بزعيم الاسرة فان توجيه العائلة ينتقل الى ابنه الاكبر ، او الى احد اخوته ، او الى اجدر شخص في الجماعة حتى لو كان اصغر سنا . وهنا نلمس اهم تناقض يوجد في المجتمع القبلي او الذي هو في الوقت ذاته يقرر الى درجة كبيرة او صغيرة اساس البناء الاجتماعي نفسه فهذا المجتمع شبه الديمقراطي القائم اساسا على القرابة العصبية وقوة التقاليد ليس لديه مبدأ سياسي يمكن ان يكفل استمرارية السلطة . وبسبب هذا التناقض فان الانشقاق عادة ما يحدث على نحو متكرر داخل الاسرة ذاتها تقريبا على مستوى كل نسب جديد . وهكذا يتطور الانشقاق داخل الاسرة الواحدة عبر اتجاهين مختلفين يمثل قسم منها الشرعية ، او اذا حبذنا ان نقول الاستمرارية . بينما القسم الاخر يقوم ان لم نقل على اساس الجدارة الشخصية ، فعلى الطموح المعقول لتكوين عصبة جديدة .

ان الجماعة المكونة من الاسرة تسمى (عصبة) أو (بدنة) . وعلى الرغم من التماسك بين افرادها ، الا ان الجريمة المرتكبة داخل الجماعة تقريبا على وجه الحصر ترتد الى مرتكبها . ويأتي على راس (العصبة) اليمنية (العاقل) ـ والذي في بعض الاحيان يسمى (العين) . ويتم انتخابه من قبل الجماعة ثم يثبت منصبه من قبل العاقل الاكبر في التدرج القبلي الهرمي الذي هو عاقل (اللحمة) او (العشيرة) . ويساعد العاقل (امين) او امينان لتسجيل وحفظ وقائع الاجتماعات .

ان العشيرة البدوية المكونة من عدة عصبات المنحدرة من جد معين تكون وحدة محلية ـ سياسية واسعة وتتمتع باستقلالية ذاتية كبيرة . وعلى راس العشيرة يأتي الرئيس والذي بعطه يثبت تماسك مختلف اقسام هذه الهيئة الاجتماعية .اما العشيرة اليمنية عن ذلك . فبحكم تكليفهم مع الحياة الزراعية فان العصبات اليمنية توجد وتثبت نفسها حول منابع المياه ، ثم تحافظ على ما فيه الكفاية من الارض فيما بينها اليمن لكي تعول افراد عصبتها فالمنطقة تصبح هنا اذن رمز الحياة الجماعية وتستبدل القرابة العصبية كعامل تماسك بالرغم من ان العملية قابلة ان تعكس مثلا عندما يهدد خطر خارجي احدى القرى ، فعندما تعود العشيرة الى الظهور كشاهد لماض كاد ان ينسى تقريبا .

دعونا نمسك بجوهر القضية ونفحص حالة بعينها . فمثلا بنو سريم هم جزء من حاشد وهم قبيلة قوية كرست حياتها للزراعة منذ امد بعيد . وهم مكونون من تسعة اقسام .كل واحد منها يتالف من اقسام فرعية تشير في الحقيقة الى مناطق فحسب . فقسم (الزاهر) مثلا ينقسم الى ثلاث اقسام هي : ثلث الوادى ، وثلث الواسط . وثلث الأعلى . واذا ما اخذنا المثال نفسه ، فثلث الواسط ينقسم الى (خمر) ونواحيها من جانب ومنطقة (العربانه) من الجهة الثانية.

فماذا حدث للتنظيم الاجتماعي الموروث من البداوة ؟

ان الحياة الريفية تأتي باقسام فرعية تعرقل العمل المعتاد للمؤسسات السياسية وتعجل في تدمير السلطة القبلية . ان قسم (الزاهر) وحده يحكم من قبل ثمانية مشائخ كل يعمل مستقلا عن الاخر . فبينما صحيح ان الشيخ المحلي يمكنه ان

سلطان ناجي
مؤرخ ومفكر يمني
www.sultannagi.com

يأمل بالدعم الاكبر من عصبته . الا ان العشيرة موزعة كثيرا ووجودها الفعلي ككيان سياسي فحسب . ونفس الشيء يمكن ان يقال اكثر بالنسبة للقبيلة .اما وضع الحلف فهو اكثر اهتزازا .

التنظيم الاجتماعي في خمر :

في نقاشنا للمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الاخرى ، ومن اجل ان نتجنب التعميمات المبتسرة سنحصر ملاحظاتنا على منطقة (خمر) وذلك على الرغم من اشعارنا الا انها تطبق ايضا في المناطق الاخرى من المرتفعات العليا . ويبلغ سكان خمر الواقعة فوق تل صغير برتفع حوالي ٢٤٠٠ متر فوق سطح البحر الى شمال صنعاء حوالي ٢٠٠٠ نسمة وبحكم القرابة العصبية او التحالف فهم يتبعون قسم الزاهر . ويقوم بضبط الامر في المدنية مثل الحكومه هو العاقل . اما السلطة القبلية فيمثلها الشيخ .

وكممثل للسلطة القبلية فان شيخ خمر بالكثير لايسيطر سوى على مقاطعة واحدة . وتساعد الشيخ في اعماله مجموعة من العقال : فلكل قرية عاقل يمثلها الا ان كل مدينة سوق او اية منطقة اكثر اهمية فانها تمثل من قبل اكثر من عاقل واحد . فمثلا لمدينة خمر وحدها اربعة عقال . فمن حيث المبدأ فان العاقل ينبغي له ان يرتبط برئيس العصبة ، التي يمثل جماعتها اللحمية ، بحكم ارتباطها بالارض ، الى المحافظة على شكلها التقليدي . والواقع فان هذا هو الحال في المزارع والقرى الصغيرة فقط . وفي خمر فان العاقل بجانب الشيخ ، يعني في الاساس ممثلا لنوع من النقابة الحرفية .

وينقسم سكان خمر الى جماعتين متمايزتين ليس لهما نفس المرتبة الاجتماعية او الاهمية العددية الواحدة . وهاتان الجماعتان هما جماعة الفلاحين وجماعة البياعين . وبسبب احتقار التجارة فان الجماعة الاولى تعتبر نفسها افضل ولذا تعامل الاخرى بنوع من التفوق .

ويذهب التمييز الى مدى ابعد من هذا البديل الواضح المتمثل بمالك الارض مقابل التاجر . ففي داخل كل من هاتين الفئتين يجد الواحد جماعات حرفية واخرى مهنية . فالفلاحون يشملون مزارعين حقيقيين وقضاة ايضا . ويتعامل افراد هذه الجماعة المهمة مع الشيخ عن طريق ثلاثة من العقال اثنان منهم يمثلان الفلاحين والثالث يمثل القضاة ويشمل البياعون المدكنين واصحاب المطاعم والقهوات الصغيرة ، والحرفيين ، والجزارين . ويمثلهم جميعا عاقل واحد فقط هو في هذه الحالة رئيس الجزارين والذى يقوم ايضا بمهام رئيس المجلس البلدى . واى مسح سكاني لخمر سيظهر حارات مخصصة للمقهويين واصحاب المطاعم الصغيرة ، واخرى للفلاحين ، وثالثة للقضاة .

والعقال في خمر ليسوا كلهم رؤساء عصبات ، فبينما مثلا يكون (بنوعمران) عصبة بعاقلها الخاص بها ، نجد (بيت مهدى) والفقهاء انهم اكثر من اسرة برغم انهم جميعا يمثلون من قبل عاقل واحد . والقضاة في الاساس لايكونون عصبة واحدة ، فمعظمهم غرباء يتمتعون بحق الجوار في (خمر) ويسمون (هجرة) ومع ذلك فيمثلون من قبل الناطق باسم كل من التجار والشغيلة .

ويخصص اسفل السلم الاجتماعي لما يسمونه (بالعنادل) ومفرده (عندیل) . وهذا المصطلح تتجاهل المعاجم العربية معناه . وبدرجة اساسية

سلطان ناجي
مؤرخ ومفكر يمني
www.sultannagi.com

* البروفيسور يوسف شلحود

فهو يطلق على الجزار والمزين الذى يعمل ايضا كحلاق وايضا كختان ، ومقدم الاضاحي ، والطبال والحجام ، والخدام ، اثناء الاعراس والاحتفالات . كما يطلق المصطلح ايضا على (القشام) ــ الذى يبيع كرثه وبقله في السوق وعلى الصانع الذى يمكن ان يكون حائكا ايضا . ثم الحمامي ــ الذى يدلك ابدان الناس بالماء والصابون في الحمامات العامة ــ والدوشان ، والمقوت .

وكانت توجد مناطق معينة بكل حرفة من العنادل ، ولم يكن في مقدورهم الالتحاق بالجيش وكانوا يمنعون من حمل السيف او البندقية . وعلى الرغم من السماح لهم بلبس الجنبية ، رمز الحرية والتحرر ، الا انها ينبغي ان توضع الى اليسار على عكس غالبية المواطنين الذين يلبسونها في الوسط . وللسادة والقضاة والاعيان الحق فقط في لبسها على اليمين . ولايسمح لشخص من طبقة اعلى ان يعاتب على عندليل او يسيء اليه . فاذا حدث مثل هذا الامر فكل المجتمع يقف الى جانبه حتى يحصل على حقه . واخيرا فعلى هامش هذا المجتمع المقسم الى فئات مختلفة ، تعيش فئات الاخدام دون ان تعتبر جزءا منه . انهم حثالة السكان والذين لايرضى اى يمني ولو كان من المعوزين ان يزوجهم . ويعمل الاخدام كمكنسين ومنظفين ومغنيين وراقصين . ولن نذكر الانشطة الاقل سماحا بها التي تقوم نساؤهم بعض الاحيان بها .

ومن بين العنادل اثنان منهما يستحقان اهتمامنا بالذات وذلك بسبب مدى وتنوع اعمالها ، واعني بهذين (المزين) و(الدوشان) . فبجانب عمله ، كحلاق ، يقوم المزين بالختانة وذبح الاضاحي عندما لايستطيع مقدمها ذبحها بنفسه . كما يقوم المزين ايضا بحمل الرسائل او مصاحبة العروس من بيت ابيها الى بيت زوجها عندما يكون الزوج يعيش بقرية اخرى . ومقابل هذه الخدمات التي يقدمها للمجتمع يحصل المزين على مقادير من القمح والشعير والدخن اوقات الصراب او الحصاد وفي حالات الزواج ينفح مبلغا من المال ،كما يعطى رقبة كل ذبيحة يذبحها .

الدوشـــان :

ومهمة الدوشان الرئيسية هي الكلمة . فلكونه شاعرا ذرب اللسان وان كان مطلا ، فهو دائما موجود في كل مناسبة سعيدة لتقديم المديح لصاحب المناسبة ولضيوفه الذين يتوقع منهم مبلغا من المال . ويبدومصطلح (دوشان) غريبا عن العربية . وكما يعتقد بعض اليمنيين فمن المحتمل انه لفظة مركبة اصبحت مع الاستخدام معكوسة الترتيب . وهي واضحة بشكلها القديم . فلربما تعني (ذو شأن) .

وكيفما كان الامر فالدوشان يعتبر الان من بين اكثر الفئات المحتقرة في المجتمع . فهو اساسا يعتبر خادما للقبيلة يقوم بنقل الرسائل واشعار افراد القبيلة بقرارات رئيسهم . وفي اوقات الصراع العشائرى او عند القتل يتم ارساله من اجل اشعار العصبات لكي يدافعوا عن انفسهم او من اجل الاستعداد لاخذ الثار . فالعادة هو ان يذهب الى السوق او الى اى مكان عام ثم يزف لهم الخبر بطريقة خطابية . وعند اندلاع الحرب يقوم بنقل الرسائل بين المتحاربين . ويتجهون بانظارهم اليه من اجل عقد السلم او الحصول على هدنة . وفي الحقيقة فالدوشان يتمتع بحصانة كاملة تسمح له ان يتحرك بين العسكرين المتحاربين بامان كامل وبكلام آخر ففي اثناء الاشتباكات يصبح بالفعل (ذوشأن) وهو الافتراض الذى سبق ان طرحناه . وهذه الميزة تسمح له كزميله المزين في القيام

سلطان ناجي
مؤرخ ومفكر يمني
www.sultannagi.com

بالمهمة الحساسة لمرافقة المرأة التي تتزوج الى قرية خارج قريتها من بيت ابيها الى بيت الزوجية.

بالاضافة الى الدور الثنائي الذي يقوم به الدوشان كرسول وكمفاوض ، فانه يقوم ايضا بدور الترو بودور فتراه يتجول بين العشائر يغني المدائح للمشائخ والاعيان واولئك المحتفلين باحداث سريعة . كما يقوم ايضا بنفس الشيء عند عودة الحجاج او التجار وتنصيب الروساء الجدد ، ووصول الضيوف الكبار وفي اوقات الزواج ، والميلاد ، والختان . وعندما تكون العشيرة مشتبكة في حرب يقوم الدوشان بحث وتحريض الرجال على الهجوم مناشدا حميتهم ومثيرا هممهم . ان السلاح الاوحد للدوشان هو لسانه ، ولا يستطيع احد ان يرفع اصبعه عليه . فان هو فعل ذلك سوّد وجهه الى الابد . وامتيازاته هي تلك المخصصة عادة للاشخاص الممنوحي الهجرة والتي سنعود الى ذكرهم .

ويبقى الدوشان دائما خارج دائرة المسئولية الجماعية ، واية جريمة ترتكب ضد احد حماته لاترتد عليه البته .وعلاوة على ذلك فليست هناك امكانية للزواج بينه وبين اولئك الذين يستخدمونه . انه يستطيع ان يتزوج فقط ابنة زميل له من نفس فئته الاجتماعية . وما لم يتجه اولاده لاسباب اقتصادية الى الاعمال البدوية ، ستبقى لهم نفس مكانته .

وبينما يعيش الدوشان على هامش العشيرة ، الا انه مرتبط بها بعلاقات قضائية . فهم يعطونه وثيقة تسمى (قاعدة) . وفيها يذكر بأن فلان الفلاني ابن فلان الفلاني سيقوم بوظيفة الدوشان . ومقابل ذلك فقد تم الاتفاق ان تقضى له حاجاته وهو لايعطى مرتبا محددا ، وانما يدفع له كل واحد حسب مقدرته ونخوته . اما صاحب الاحتفال فيدفع له هدايا عينية . وفي اوقات الحصاد يستلم من الفلاحين قمحا وشعيرا وذرة وكبشا بعض الاحيان يكفي لتغطية حاجاته طيلة العام .

ويتحرك بين العصبيات باحثا عن حادث سعيد يستطيع ان يستفيد منه او ظرف خطير يتطلب تدخله فهو اذن بالاساس يعيش وجودا بدويا . فمن كل ناحية فهو انسان يوجد في كل مكان ولا يوجد في اي مكان . والتذكير البعيد لحياة البداوة هي الخيمة السوداء التي هي بيته . والاسم المعطى لها ينم عن حالة العزلة المفروضة عليه . فهي تسمى (خدر) وهي نفس اللفظه العربية الفصحى التي تطلق على حجاب الفتاة .

وكما يحافظ الشيخ على شعور التماسك فالدوشان يعيد الى الاذهان شعور الوحدة كواصلة بين مختلف اقسام العشيرة وكرمز حي لطراز من الحياة كاد ان ينسى . الا وهو التجوال والذي ابرز بقاياه هو التوزيع الاقليمي في قاعدة العشيرة اليمنية . وهذا كما سبق ان اوضحناه ، يحافظ بتكلف على بنيان اجتماعي هو بصراحة قبلي المنابت والاصول .

ويميل الدوشان الى الاستقرار والعيش في بيوت والاتجاه نحو الزراعة . ومع ذلك فبالرغم من التغيرات الاقتصادية فان العادات الموغلة في القدم تقاوم بعنف كل ما من شأنه تذويب الفوارق بين الطبقات الاجتماعية . لقد قررت ابنة فلاح ارملة وام لعائلة ان تعيد بناء حياتها مع مزين . ولكن الذي حدث هو ان كل اقاربها اعرضوا عنها بما فيهم ابنها الوحيد الذي توقف عن زيارتها . لقد كان زواجها اكثر من زواج غير موفق . لقد كان انهيارا حقيقيا .

وكما نعرف فقد حكم اليمن اكثر من الف عام

سلطان ناجي
مُؤرخ ومُفكّر يمني
www.sultannagi.com

ائمة الزيود الذين كانوا يختارون من قبل طبقة السادة الذين كانوا يشكلون الارستقراطية الدينية ويأتون بعد العائلة الحاكمة من حيث الهرم الاجتماعي . واى رجل من فئة اجتماعية اخرى بغض النظر عن مكانته العالية كان لايمكن ان يتزوج بهاشمية .

هجـــرة :

من وجهة نظر عالم الاجتماع وبالذات فيما يتعلق بتأثير المقدسات على الترتيب الاجتماعي . فان اكثر الامور امتاعا هو وجود هذه المؤسسة الغريبة في اليمن المسماة (هجرة) . والتي يبدوانها قلما جذبت اهتمام علماء الاجتماع بها . ومن الصعوبة تحديد المعنى الدقيق لهذا المصطلح المشحون كثيرا بالتاريخية .

فأولا هناك بعض المدن المسماة (هجرة) او (هجر) . ويفيدنا المؤرخ اليمني الهمداني (القرن العاشر الميلادى) ان اللفظة الثانية بالحميرية تعني مدينة او مجموعة حصون (محافد) . اذن فهي مؤسسة من قبل الاسلام كما تؤكد بذلك اسماء المدن القديمة في اليمن . وبين اوساط اليمنيين المعاصرين فكلا اللفظين لها معنى مدينة سوق كبيرة تخدم كنقطة تجمع للقبيلة والتي تعتبرها بوجه من الوجوه مكانا مقدسا ففي الهجرة فان هدر الدم الانساني ممنوع فيها تماما . كما يمنع فيها القتال او حتى مجرد الشجار . فهنا يستطيع القاتل ان يقابل ابن او اخ ضحيته دون اى خوف على نفسه . وكل من يقوم بارتكاب مخالفة فيها سيدفع عقوبة اكبر بكثير مما سيدفعه لمخالفة مشابهة يرتكبها في مكان آخر . ولن يكون معرضا للملاحقة من قبل ضحيته فحسب ، بل من قبل كل المشائخ الرئيسيّ للقبيلة الذين يضمنون الامن في المنطقة .

وتعتبر خمر هجرة لكل الحاشدين . ويتمتع سوقها الاسبوعي بحقوق اللجوء . وبحمى نوع من الصلح المقدس المجرم الذى يأتي هناك يوم السوق واليوم الذى قبله وبعده وذلك من اجل ان يعوم بالرحلة من والى المدينة بسلام .

وهناك اشخاص ايضا يدعون هجرة ، وهم عادة مهاجرون من طبقة (الفقهاء) او (السادة) الذين استقروا في مكان معين ، والذين بمجرد قبولهم يصبحون متمتعين بمكانة خاصة . ولكونهم محميين بسبب مكانتهم فبامكانهم ان يتدخلوا بين المتحاربين لعقد السلم في اى وقت حتى اثناء احتدام المعركة . وبمجرد ان تضفى على الشخص صفة (الهجرة) تبقى كافة في شخصه حتى وقت وفاته . بل انها ايضا قابلة للتوارث بين ذريته ولكنها تبقى صالحة وشرعية في محل بعينه . ويفقدها الشخص عندما يترك المنطقة ويستعيدها بعد عودته .

ويتمتع رجال (الهجرة) تقريبا بحصانة شاملة بسبب مكانتهم . وأى شخص لايظهر لهم الاحترام وينتهك حرمة حقوقهم او يقوم بمحاولة اعتداء على اشخاصهم يعاقب بشدة . ويفرض عليه التعويض من قبل الجماعة الحامية ككل بحيث يساوى قيمته احدى عشرة مرة قيمة نفس المخالفة في الاحوال العادية . ولاهمية التعويض فانه يسمى (تهجير) في هذه الحالة . ومن المفيد ان نتذكر بان الامتيازات المعترف بها لاولئك الذين هم (هجرة) تمنح ايضا للعناصل وبالذات منهم (الدوشان) و (المزين) .

ان التنظيم الاجتماعي الذى رأيناه يشبه الى

سلطان ناجي
مُؤرخ ومُفكّر يمني
www.sultannagi.com

حد معين نظام المنبوذين ـ كاست سيستم ـ الا ان النشاط الاقتصادي في الواقع هو الذي يحدد مكانة الشخص الاجتماعية ويحيطه بفرضيات ثابته تجعله دائما يقوم بنفس العمل ويحافظ على نفس المكانة .

ومع ذلك فهناك اختلافات هامة بين النظام ونظام المنبوذين ـ كاست سيستم ـ فمهما كانت مكانتهووضعيته فلا يمكن لليمني ان يعتبر منبوذا من قبل افراد طبقهاجتماعية عليا . ان هذا النظام الاجتماعي فريد النوع تقريبا في الشرق العربي يثير المشكلة المعقدة بحقيقة اصله . لقد لاحظ ابن بطوطة عندما كان يتكلم عن آداب الاكل عند سلطان اليمن ، شبها كبيرا بها رآه في بلاط الهند وقد تساءل عن حق : ترى اى النظامين قد أثر على الاخر ؟ بل ومن المحتمل ان التنظيم الاجتماعي الذي شرحناه في هذه الدراسة يعكس الى مدى معين النظام الاجتماعي للسبئيين الذي لانعرف عنه حتى الان الا قليلا .

فاذا كانت دراستنا هذه قد فتحت مشكلة من الصعب حلها على ضوء معرفتنا القليلة الراهنة عن اليمن ، فانها ترينا على الاقل خصوصية المجتمع اليمني وثراءه الاثنولوجي ، واهميته في فهمنا للتاريخ العربي الاسلامي . ان موسسة مثل موسسة الهجرة يبدو انها تلقي بعض الضوء على سلوك الرسول في المدينة حيث استقباله ليس كمهاجر يطلب اللجوء ولكن كمنتصر متوج بأكاليل المجد وبكافة الحقوق التي لازال اليمنيون في المرتفعات الشمالية العليا يمنحونها لممثلي العلوم المقدسة الذين يختارون العيش في حماهم وبين ظهرانيهم .